المحاضرة الرابعة:

الاتصال التقليدي والموروث الثقافي

مقدمة:

الموروث الثقافي هو كل ما تختزنه الذاكرة الشعبية بطريقة شعورية أو لا شعورية من عادات وتقاليد وفنون وعلوم وآداب وممارسات حياتية وأشكال تعبيرية ومعتقدات، تنتقل من جيل إلى آخر، وتمثل مجموع العناصر التي تشكل ثقافة المجتمع المسيطرة في منطقة ما التي تنتج منه التفاعلات اليومية بين أفراد المجتمع وأنشطتهم المختلفة.

ينتشر الموروث الثقافي باستخدام وسائل اتصال وإعلام متعددة، غير أنه مرتبط بقوة بأشكال الاتصال التقليدي ووسائله. ويعتبر الموروث الثقافي مرآة تعكس ما توصلت إليه حضارات الأمم فهو يمثل جذورها التاريخية ويعبر عن هويتها الحقيقية لأنه تراكم قرون من الزمن.

وقد عرفت منظمة اليونسكو التراث الثقافي بأنه: "ميراث المقتضيات المادية وغير المادية التي تخص مجموعة ما أو مجتمع لديه موروثات من الأجيال السابقة، وظلت باقية حتى الوقت الحاضر و وهبت للأجيال المقبلة."

ويعرفه المشرع الجزائري في القانون رقم 98-04 المتعلق بحماية التراث الثقافي في المادة الثانية منه: "جميع الممتلكات الثقافية العقارية، والعقارات بالتخصيص والمنقولة، الموجودة على أرض عقارات الأملاك الوطنية وفي داخلها، المملوكة لأشخاص طبيعيين أو معنويين تابعين للقانون الخاص، والموجودة كذلك في الطبقات الجوفية للمياه الداخلية والإقليمية الوطنية الموروثة عن مختلف الحضارات المتعاقبة منذ عصر ما قبل التاريخ إلى يومنا هذا. وتعد جزءا من التراث الثقافي للأمة أيضا الممتلكات الثقافية غير المادية الناتجة عن تفاعلات اجتماعية وإبداعات الأفراد والجماعات عبر العصور والتي لاتزال تعبر عن نفسها منذ الأزمنة الغابرة إلى يومنا هذا"[1]

وقد قسم **المشرع الجزائري** الممتلكات الثقافية إلى:

- الممتلكات الثقافية العقارية.

[1]- القانون رقم 98-04 المؤرخ في 15 يونيو 1998، المتعلق بحماية التراث الثقافي، الجريدة الرسمية، العدد 44، الصادر بتاريخ 17 يونيو 1998، ص3.

- الممتلكات الثقافية المنقولة.

- الممتلكات الثقافية غير المادية. [2]

فالموروث الثقافي ينقسم إلى:

1- موروث ثقافي مادي: ويراد به كل الأشياء التي صنعها الإنسان أو يستخدمها للتوافق مع البيئة، وقد تتدرج عنه الأشياء من الأواني الفخارية التي استخدمها الإنسان البدائي إلى مركبة الفضاء في البلاد الأكثر تقدما من الناحية التكنولوجية، وعليه فالتراث الثقافي المادي هو كل ما يلمسه الإنسان من عناصر وأشياء تخضع دائما لعامل التغير المستمر والتي سعى الإنسان لاكتسابها أو اختراعها من أجل إشباع حاجاته الأساسية. إن الثقافة المادية عموما تتمثل في العمارة كالمواقع الأثرية والمدن العتيقة والمتاحف الافتراضية أو المتاحف التي بلا حدود خاصة، والمباني والمنشآت ومختلف وسائل النقل، وأيضا التراث الأدبي والفني وتتمثل في الملابس والحلي والآلات الموسيقية والمخطوطات والصناعات الحرفية اليدوية وغيرها.[3]

يشتمل الموروث المادي (Tangible cultural héritage) على الآثار والمباني والأماكن الدينية والتاريخية والتحف من منشآت دينية وجنائزية كالمعابد والمقابر والمساجد والجوامع، ومبان حربية ومدنية مثل الحصون والقصور والقلاع والحمامات والسدود والأبراج، والأسوار، التي تعتبر جديرة بحمايتها والحفاظ عليها بشكل أمثل لأجيال المستقبل.[4]

وينقسم الموروث الثقافي المادي إلى قسمين:

1-1- الموروث الثقافي غير المنقول: ويشمل المواقع ذات الطابع الأثري، البنايات ذات الطابع العسكري، المنشآت ذات الطابع المدني أو الديني المقدس، وبعض المجموعات التاريخية والتقليدية (مبنية أو غير مبنية كالمدن والقصور، القصبات...)

---

[2]- المرجع السابق، نفس الصفحة.

[3]- محمد سويلم، محمد سعد بوحادة: الحماية القانونية للموروث الثقافي المادي وأثرها في ترقية الاستثمار السياحي في الجزائر، مجلة الاجتهاد للدراسات القانونية والاقتصادية، المجلد 7، العدد 05، 2018، ص 243. https://alijtihed.cu-tamanrasset.dz/wp-content/uploads/2018/10/alijtihed-mag-017.pdf

[4] -https://ar.wikipedia.org/wiki/تراث_ثقافي_مادي

1-2- الموروث الثقافي المنقول: كالحفريات والمخطوطات العلمية والفنية والرسوم والمنحوتات والصور وأدوات الحياة اليومية. [5]

2- موروث ثقافي لامادي: تعرفه منظمة اليونسكو كما يلي: "يقصد بعبارة التراث الثقافي غي المادي الممارسات والتصورات وأشكال التعبير والمعارف والمهارات -وما يرتبط بها من آلات وقطع ومصنوعات وأماكن ثقافية- التي تعتبرها الجماعات والمجموعات، وأحيانا الأفراد، جزءا من تراثهم الثقافي، وهذا التراث الثقافي غير المادي المتوارث جيلا عن جيل، تبدعه الجماعات والمجموعات من جديد بصورة مستمرة بما يتفق مع بيئتها وتفاعلاتها مع الطبيعة وتاريخها، وهو ينمي لديها الإحساس بهويتها والشعور باستمراريتها، ويعزز من ثمة احترام التنوع الثقافي والقدرة الإبداعية البشرية"

وعلى ضوء هذا التعريف فإن التراث الثقافي اللامادي يتجلى في المجالات التالية:

أ) التقاليد وأشكال التعبير الشفهي بما في ذلك اللغة.

ب) فنون وتقاليد أداء العروض.

ج) الممارسات الاجتماعية والطقوس والاحتفالات.

د) المعارف والممارسات المتعلقة بالطبيعة والكون.

هـ)المهارات المرتبطة بالفنون الحرفية التقليدية. [6]

ويمكن تقسيم الموروث الثقافي اللامادي إلى مايلي:

2-1- التقاليد الشفهية وفنون التعبير الشفهي: وترتبط هذه الفنون بما أنتجته الذاكرة الجماعية الجزائرية أثناء التعبير عن أفراحها وأحزانها في شكل حكايا كقصص البطولة، والأمثال، الحكايات، أغاني الأطفال، أغاني القصائد الملحمية، الأساطير، الأناشيد، والتعويذات، الصلوات.

---

[5]- إيمان هنشري: الموروث الثقافي الجزائري الواقع والآفاق، مجلة حوليات التراث، العدد17، سنة 2017، ص 100.

[6]- نص اتفاقية صون التراث الثقافي غير المادي https://ich.unesco.org/ar/convention

2-2-فنون وتقاليد وأداء العروض: وهي متنوعة في الموروث الثقافي الجزائري وتتراوح بين الموسيقى الغنائية والآلات الموسيقية إلى الرقص والمسرح إلى الإيحاء والشعر الغنائي والعديد من أشكال التعبير الثقافي.

2-3-الممارسات الاجتماعية والطقوس والاحتفالات: وهي ترتبط بالحياة اليوميةلأفراد المجتمع الجزائري وترتبط بشكل وثيق بتصورهم للعالم وفهمه لتاريخهم وذاكرتهم كما ترتبط بأنشطتهم الحياتية.

2-4-المعارف والممارسات المتعلقة بالطبيعة والكون: وهي كل ما يؤمن به الأفراد من أفكار ومعتقدات تتعلق بالعالم الخارجي والعالم فوق الطبيعي.

2-5-المهارات المرتبطة بالفنون الحرفية التقليدية: وهي مهارات ترتبط بالمعارف المتصلة بالفنون الحرفية وليس بالمنتجات الحرفية نفسها وهي متنوعة جدا في الجزائر.[7]

3- الاتصال التقليدي والموروث الثقافي:

إذا كان الاتصال التقليدي يمثل الميكانيزم الذي يتم وفقه انتقال الرموز والموضوعات والأفكار بين الأفراد والجماعات في ثقافة مجتمع ما، فماهي العلاقة التي تربطه بالموروث الثقافي في الجزائر؟ وهل عمل الاتصال التقليدي على نقل الموروث الثقافي والمحافظة عليه؟

الاتصال الشفهي ← التراث المادي واللامادي

الاتصال الشخصي ← التراث المادي واللامادي

الاتصال اللاشفهي ← التراث المادي واللامادي

يلعب الاتصال التقليدي دورا أساسيا في نقل الموروث الثقافي من جيل إلى جيل، فمعتقدات أفراد المجتمع المتعلقة بما يؤمن به من أفكار حول العالم الخارجي وما وراء الطبيعة وتصوراتهم عن الظواهر الطبيعية والنفسية يتم توارثها من خلال اتصال الناس بعضهم ببعض بطرقهم التقليدية كممارسات وأفعال فردية أو جماعية. وكذلك العادات التي تعودها أفراد المجتمع والأعراف التي تعارفوا عليها تحمل جزءا كبيرا من الموروث الثقافي كذلك المتعلق بعادات الأكل وآدابه وطرق التحادث وإلقاء التحية واستقبال الآخرين وغير ذلك.

---

[7]- إيمان هنشري: مرجع سابق، ص-ص 102- 106.

إن كل أصناف التراث المادي واللامادي التي يتم توارثها من جيل لآخر ومن ثقافة لأخرى مهددة بأخطار الطبيعة والإنسان كتقلبات المناخ والظواهر المدمرة كالزلازل والسيول، والسرقة والإتلاف والتدمير وغير ذلك وقد يكون عرضة للتآكل والتفتت والتشويه وفريسة للانفجار الديمغرافي وتكاثر الجماعات وتأثير الأزمات الاقتصادية وانتشار الثقافات الفرعية المعادية والحركات الاستعمارية، ومخططات العولمة. ولهذا فإن كل أشكال الاتصال التقليدي و وسائله المختلفة من شأنها أن تصون تراث الأمة وتحفظه بما يحفظ الهوية الثقافية للمجتمعات المحلية.

ومن الملاحظ أن بعض عناصر الموروث الثقافي في الجزائر توقفت عن الاستمرار في تشكيل المشهد الثقافي الوطني كما أن هناك عناصر أخرى استمرت بصورة غير التي كانت عليها [8]، وقد يعود ذلك إلى انفصالها عن وسائل الاتصال التقليدي وأشكاله المتنوعة، وتخلي الذاكرة الجماعية عنها. فهذه العناصر أصبحت لا تمتلك القدرة على المقاومة بفعل الاجتياح التكنولوجي لسلوك الأفراد والجماعات وسيطرته على عاداتهم وتقاليدهم وفنونهم وغير ذلك فقد حدثت عملية إزاحة لهذه العناصر لصالح عناصر أخرى يمكن أن تكون أجنبية. إن الثقافات جميعها تأثرت تأثرا عميقا بالتكنولوجيا وكذلك بالتغيرات السياسية ومختلف الحروب والهجرات، فعادات ومعتقدات الشعوب التي كانت تعيش كأسلافها تتغير الآن تغيرا سريعا [9].

على هذا الأساس يمكن القول أن الاتصال التقليدي هو بمثابة حافظ قوي لأشكال مختلفة من الموروث الثقافي فإذا ما تعرض للنسيان والإهمال أو الاندثار، ذهبت مضامينه التراثية المتنوعة.

إن بعض كتّاب المسرح في الجزائر يستلهمون التراث الشعبي في مسرحياتهم لأنه يعبر عن واقع الشعب ويجسد همومه، وذلك بتوجيههم نحو العادات والتقاليد والمعارف التي تمثل جزءا من حياة أفراد هذا الشعب، وتعتبر مسرحية (الأجواد) لعبد القادر علولة نموذجا معبرا عن ذلك، فبناؤها الفني يعود إلى معايير التراث الشعبي بدءا بعنوان المسرحية الذي يعبر عن صفة استحسان السلوك إضافة إلى (القوال) والاعتماد على الأغنية الشعبية في تلوين شخصية القوال و وسم طابعها التراثي، أبطال المسرحية من أفراد الشعب البسطاء ولغتهم هي لغة الشعب

---

[8] – إيمان هنشري: المرجع السابق، ص 107

[9] – يوسف حسن مدني: الثقافة الشعبية المادية في عالم متغير، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 29، السنة الثامنة، 2015، البحرين، ص 07.

فيها العامية تختلط أحيانا بالفصحى، لقد اعتمدت هذه المسرحية على السرد الحكائي المستلهم من الحكاية الشعبية أيضا. [10]

كما تعتبر مسرحية (حيزية) التي تشخص موضوع الحب العذري في المجتمع البدوي توظيفا اجتماعيا للحكاية الشعبية، ويوضح عز الدين ميهوبي صاحب النص المسرحي أن هذه القصة واقعية بطلاها سعيد وحيزية تحولت إلى حكاية شعبية جالت فيها خيالات الناس بالزيادة والنقصان، وقد عاشت هذه القصة العاطفية المؤلمة بفضل مُحَّد بن قيطون الذي خلد قصة العاشقين في قصيدة رثائية بعنوان "حيزية" تداولتها الأجيال شعرا وغناءً منذ وفاة بطلة القصة سنة 1875، كما توضح هذه المسرحية دور المكان كوسيلة للاتصال التقليدي حيث تظهر ساحة سوق عامة في اللوحة الأولى للمسرحية في أحد زواياها يتكئ مُحَّد بن قيطون على جدار ويقصده سعيد وأحد أصدقائه يسألاه عن موعد اكتمال القصيدة. [11]

إن التقاليد الشفهية وأشكال التعبير المختلفة تستخدم لنقل المعارف والقيم الثقافية والاجتماعية، وتحفظ الذاكرة، وتصون القيم الثقافية والاجتماعية، إنها في الأخير تلعب دورا بالغ الأهمية في صيانة ثقافة أي أمة وإبقاءها نابضة بالحياة[12]. كما أن بعض أشكال الاتصال غير اللفظي كالأزياء والرموز تلعب دورها في الحفاظ على الموروث الثقافي أو التعريف به. إن اللباس التقليدي جزء من ثقافتنا وتاريخنا الذي يمتد بعيدا في التاريخ، فهو سمة أساسية لأي جماعة أو شعب، ولهذا فمن الطبيعي أن يعتز كل فرد بملابسه لما لها من ارتباط وعمق تاريخي متصل بالحضارة والأصالة. ويعتبر اللباس التقليدي الجزائري رمزا معبرا عن التأثيرات الثقافية المتعددة الأمازيغية والعربية والأندلسية والعثمانية والأوربيةالتي ساعدت على الإلهام لأنها تزاوجت مع القيم الجزائرية، ويعتبر "الحايك" لباسا تقليديا جزائريا عريقا أصيلا ينظر إليه كرمز للعفة والحشمة والأنوثة ورمز لهوية المرأة الجزائرية. إنه علامة خاصة بطريقة لباسه التي تحمل دلالة الانتماء إلى الجماعة وكذلك المكان، وكذلك الخضوع لطقوس وأدوار معينة. [13]

---

[10]– عبد الحليم بوشراكي: التراث الشعبي والمسرح، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الحاج لخضر، بانتة، 2011/2010، ص–ص 150–169.

[11]– أحسن ثليلاني: توظيف التراث في المسرح الجزائري، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة منتوري، قسنطينة، 2010/2009، ص،ص 164، 165.

[12]– التقاليد الشفهية وأشكال التعبير الشفهي بما فيها اللغة بوصفها وسائل وسائل لنقل التراث الثقافي غير المادي.
https://ich.unesco.org/ar/-00053

[13]– دريسي ثاني سلاف: اللباس التقليدي "الحايك نموذجا"، مجلة أنثروبولوجيا، مجلد 04، عدد 08، 2008، ص 210.
www.asjp.cerist.dz/en/article/79272

4- التراث وعلاقته بالثقافة

هناك خلط بين التراث والثقافة، لأن البعض يعرف التراث بأنه الثقافة أو العناصر الثقافية التي تلقاها جيل عن جيل أو انتقلت من جيل إلى آخر، فيكون التراث بذلك عناصر ثقافية متناقلة من الأجداد إلى الأحفاد، غير أن التراث الثقافي أوسع من هذين العنصرين، فمثلا يشكل الموروث الشعبي -بوصفه جزءا مهما من التراث الثقافي- عالما رحبا من الذاكرة الجزائرية لأنه متكون من عالم متشابك من الموروث الحضاري. فالموروث هنا شكل ثقافي يتميز بسمة الانتقال الاجتماعي وهو يجمع مختلف الجوانب أو الموارد الثقافية الفكرية منها أو المادية التي يتوراثها الناس عبر الأجيال فتكتسب بذلك سمة البقاء والاستمرار.

ويرى مُحَّد عابد الجابري أن الشعوب ترتبط بتراثها ولكن بنسب معينة وهي تفكر به ومن خلاله، لكن هناك من يفكر بتراث يمتد إلى الحاضر والحاضر جزء منه وهو تراث متجدد يخضع للمراجعة والبعد، وهناك من يفكر بتراث توقف عن التطور وانقطع عن أمور الحياة في كل أبعادها منذ قرون، تفصله عن الحاضر "مسافة علمية طويلة. [14]

[14]- مُحَّد عابد الجابري: نحن والتراث، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1993، ط6، ص 22.